

قراءة استنباطية في الوضع اللغوي السائد في الجزائر

طالب محمد نور الدين

TALEB, Noureddine

(Université d'Oran Es-Sénia)

حاليا يعرف المجتمع الجزائري تحولات سياسية اجتماعية معتبرة تغيرت إثرها مفاهيم الناس للحياة و تعددت مباديهم. و إذا كانت هذه التحولات قد مست مجمل الميادين الاجتماعية بما فيها الثقافية و الاقتصادية دون استثناء ، تبرز اللغة وسطها كموضوع جدير بالناية و الاهتمام يتطلب إعادة النظر استجابة لمستجدات الواقع الاجتماعية المعاش في الوقت الحاضر . و ما نستطيع ملاحظته من خلال هذه المعطيات الجديدة الطارئة على المجتمع الجزائري المعاصر ، هو أنه بعد أن كان الخطاب الرسمي عن اللغة في الجزائر يتمحور فقط حول اللغة العربية و كيفية نشرها في مختلف المجالات الاجتماعية ظهرت في الأيام الأخيرة أصوات تنادي باللغات المحلية (العامية و الأمازيغية) و بحقها في الاستعمال و التعميم . فترتب عن هذا النقاش حاد على المستوى الوطني ، اختلفت فيه الأقوال و تضاربت الآراء حول وضع و مستقبل كل واحدة من هذه اللغات بما فيها اللغة العربية، لكن هل يكفي أن ننادي بلغة ما لتكون صالحة للاستعمال من طرف جميع شرائح المجتمع الجزائري و جاهزة للتعميم في مختلف الميادين الاجتماعية ؟

طبعاً الجواب المنطقي على هذا السؤال هو لا ، فالأمر يستلزم دراسة موضوعية شاملة و بحثاً دقيقاً مطابقاً للأصول و المبادئ العلمية الخالية من كل ميل عاطفي متحجر أو تعصب قومي متزمت و بعيداً عن كل انتماء سياسي متطرف .

إن أول ما يلفت الانتباه عند الحديث عن اللغة في الجزائر هو مفهوم " اللغة الوطنية " إذا كانت اللغة العربية كما يشار إليها في الميثاق و الدستور الوطنيين تعتبر اللغة الوطنية الوحيدة في الجزائر، فما هوية اللغات المتداولة محلياً ؟ و هل هذا يعني أن اللغات المحلية تعد لغات غير وطنية ؟ إذا صحت هذه الفرضية فكيف يمكن لنا أن نحدد اللغة الوطنية من اللغة الغير الوطنية ؟ و ما هي مبادئ و مقاييس تعريفها ؟ الإجابة عن كل هذه التساؤلات تكمن في معنى و مفهوم مصطلح " الوطنية " نفسه . فهو مشتق من كلمة " وطن " التي حسب قاموس اللغة العربية تعني " منزل إقامة الإنسان ولد فيه أو لم يلد " (1) . نفهم من هذا أن وطنية الفرد و بالتالي لغته مرتبطة كل شيء بمكان إقامته ، دون أخذ بعين الاعتبار أصله و بيئته التي نشأ فيها . لكن حتى إذا سلمنا بهذا التعريف ، فكيف نفسر وضعية الإنسان الذي يولد في بلد كالجزائر مثلاً ، و بعد بلوغه سناً معيناً يكتسب من خلاله عادات و تقاليد و ثقافة ولغة ثم يرحل ليقوم ببلد آخر كفرنسا على سبيل المثال (وضع المغتربين الجزائريين هناك) ؟ هل وطنه هو الجزائر أم فرنسا ؟ و ما هي لغته الوطنية : اللغة التي تعلمها و اكتسبها منذ طفولته في بلده الأصلي الجزائر أم اللغة الفرنسية التي ربما لا يعي و لا يعرف منها إلا شيء القليل ؟

نستنتج من هذا التحليل اللغوي لمفهوم كلمة " وطن " أن اللغة بطبعتها الاجتماعية الخاص بالإنسان دون غيره، ليست لها علاقة بموقع وجودها . فهي مرتبطة فقط بالإنسان الذي يحملها أينما وجد . في وطنه أو خارجه . لكن إذا حاولنا التعمق في هذا الموضوع و تطرقنا له من مختلف الجوانب ، نجد أن كلمة " وطن " بمفهومها العام ترمز أيضا إلى " البلد أو المدينة مسقط رأس الإنسان " من جهة و إلى " مجموعة من الناس يعيشون على أرض واحدة تجمعوا بحكم روابط ثقافية للدفاع عن قيمهم " من جهة أخرى. (2) (ترجمتنا).

تبعنا لهذا نجد في بعض الأحيان و خاصة في هذا النطاق أن مفهوم "الوطن" يقارب من حيث المغزى مفهوم " الأمة " (3). و ذلك لأن الأمة هي أيضا " عبارة عن مجموعة كبيرة متجانسة من الناس تقطن بقعة من الأرض ذات حدود ثابتة ، تربط أفرادها قيم اجتماعية خاصة و وحدة تاريخية ثقافية لغوية اقتصادية معينة " (4) (ترجمتنا) .

استنادا إلى هذا التوضيح الوجيز يبدو من البديهي أن وصف أي لغة مهما كانت طبيعتها باللغة الوطنية مرتبط بالدرجة الأولى بالأمة التي تحملها. و عندما نقول " اللغة الوطنية " نعني بقولنا هذا " لغة الأمة " لا غير . و لغة الأمة الجزائرية ضمن هذا المفهوم ليست هي لغة واحدة كما يظن البعض بل لغات و هي : العربية و العامية و الأمازيغية بمختلف لهجاتها . و فقط انطلاقا من هذه الحقيقة كقاعدة أساسية يمكن لنا الحديث عن اللغة في الجزائر بكل موضوعية مع مراعاة نفوذ و مستوى

الاستعمال الاجتماعي لكل واحدة من اللغات المعمول بها في الجزائر.

بعد مدة طويلة من الاحتلال الفرنسي للجزائر و محاولته لمسخ الشخصية الجزائرية ، لقد تمكنت اللغة العربية من استرجاع مكانتها في المجتمع و استطاعت أن تقتحم و تعم مختلف المجالات حيث حققت نتائج جد إيجابية بفضل سياسة تعريب مكثفة . و نراها في الوقت الحاضر لا تزال تنافس اللغة الفرنسية الموروثة عن عهد الاستعماري و تحل محلها تدريجيا . لكن إذا كانت اللغة العربية في الجزائر تكتسي طابع الوطنية بحكم انتمائنا للحضارة العربية الإسلامية ، فالملاحظ في الواقع هو أن تناولها من طرف المواطن الجزائري يبقى إلى يومنا هذا ضيق المجال . لا يتعدى نطاق الميادين الاجتماعية الرسمية كالإدارة و سلك التربية و التعليم و الشؤون الدينية و ما يشبه ذلك .

فمجرد خروجه عن نطاق و مراسم وظيفته يعود ليتناول من جديد اللغة العامية . هذه اللغة التي تعد لغة البيت و الشارع و معظم الشؤون اليومية ، بل نجدها في بعض الأحيان تزاخم اللغة العربية في مجالاتها الرسمية : في المدرسة و الإدارة و المسجد و غيرهم . فهي بالنسبة للمواطن الجزائري اللغة الأم ، التي يكتسبها تدريجيا منذ طفولته عن طريق احتكاكه و معاشته لأفراد مجتمعه . و بمجرد تمكنه منها تغدو ملكة راسخة في ذهنه بها يعبر عن كيانه و يتصل بما حوله . و اللغة الأم هي اللغة التي يتكلم بها الإنسان " في سهولة و يسر دون تكلف أو تعسف ، فلا يكاد يحظر المعنى بباله حتى ينطق بما يعبر عن هذا

المعنى بتلك الطرائق و الأساليب الشائعة في بيئته ، لا يخطئ فيها أو ينحرف عنها " (5) وهذا هو ما يسمى بالسليقة اللغوية لا تحصل إلا في لغة الأم..

تشارك اللغة العامية في هذه الصفات المذكورة اللغة الأمازيغية التي تعد هي أيضا اللغة الأم بالنسبة لفئة معتبرة من أفراد المجتمع الجزائري بجانب ذلك فاللغة الأمازيغية هي أقدم لغة في الجزائر تمتد جذورها إلى ما قبل التاريخ، حيث عاش الإنسان البدائي. و لقد ذكرت عند المؤرخين باللغة البونيقية و الجاتولية و النوميديّة . و ما هذه اللغات إلا لهجات من لهجاتها القديمة. و هي اليوم حية تمثلها لهجات : الطوارق ، و القبائل و أشلوح و الشاوية و الريف و غيرهم . و إن دل هذا على شيء إنما يدل على صلابتها و صمودها في وجه مختلف التيارات الاستعمارية عبر التاريخ ، و بالتالي على أصالتها في الجزائر بصفة خاصة و شمال إفريقيا بصفة عامة . لكن إذا كانت اللغة الأمازيغية تعد اللغة الوطنية الأصلية للمجتمع الجزائري . بجانب اللغة العربية التي تعتبر اللغة الوطنية الرسمية ، فاللغة العامية هي اللغة الوطنية الأم باعتبارها القاسم المشترك بين أفراد هذا المجتمع . يفهمها و يتكلم بها الصغير و الكبير ، الأمي و المثقف ، العربي و الأمازيغي . كما نجدها أوسع هذه اللغات استعمالا و أكثرها انتشارا في الجزائر.

استنادا إلى ما سبق ذكره و انطلاقا من الواقع أرى أنه من الضروري تصنيف اللغة الوطنية في الجزائر إلى ثلاث لغات و هي :

(1) الوطنية الرسمية (العربية)

(2) اللغة الوطنية الأصلية (الأمازيغية) . التي تعد في نفس الوقت اللغة الوطنية الأم لبعض الفئات.

(3) اللغة الوطنية الأم (العامية)

* تنعت العامية الجزائرية بالـ " الهدرة " ! فما مغزى هذا

النعته الغريب الشائع عنها في الأوساط الشعبية ؟

مما لا شك فيه هو أن " الهدرة " مصطلح عامي مشتق من فعل " هدر

الذي يعني " تكلم " (هو) . أما مصدره الحقيقي و إن

كان الجزم فيه يصعب في الوقت الحاضر لعدم توفرنا على

المراجع العلمية و المعطيات التاريخية الخاصة به إلا أنني أراه

يعود إلى جذر الفعل العربي " هدر " و ذلك استنادا إلى معنى هذا

الأخير القاضي بإبطال الشيء من جهة، و إهماله و تجاهله و

اللامبالاة به من جهة أخرى. تعليل هذا الحكم يمكن التماسه من

تعبير قولهم : " ... فلان يهدر اللغة ... " بمقصوده الأول و هو

أن " ... فلان يخطأ و يحرف اللغة ... " أي يبطئها . في هذه

الحالة يكون وصف العامية الجزائرية بـ " الهدر " منعكسا في

محتواها المحرف بالمقارنة مع اللغة العربية و المركب بطريقة

غير مألوفة فيها . أما معناه الثاني المتمثل في أن " ... فلان يهمل

و يتجاهل اللغة غير مبالي بها ... " قد شاع أيام ازدهار اللغة

العربية، حيث انكبت الدراسات اللغوية في البحث عن تفصيل

محتواها و تقنين قواعدها . فكان آنذاك العلماء يشهدون عند

تحديدهم لما هو عربي فصيح من الملحن و الدخيل بتفضيل لغات

(لهجات) بعض القبائل العربية (لهجة قريش مثلا) عن مثلتها

. و لما كان الخلاف في تنفيذ ذلك قائما ، كان يعبر عنه في لغتهم

بقولهم : " ... العالم الفلاني يأخذ بلغات (لهجات) كذا ... و

يهدر لغات (لهجات) كذا ... " فكان لهذا التعبير ما كان له من انتشار .

هذا على سبيل المثال لكن ما يهمنا هو أن في كلا الحالتين لما كانت ملكة اللسان العربي في ديار إفريقية ضعيفة، لا يكاد الواحد من أصحابها يميز بين مقاصد مختلف معاني المفردات العربية (لقد لمح العلامة ابن خلدون إلى هذا في مقدمته -الكتاب الأول - في الفصل الثاني و الخمسين) (6) ربما فهم المقصود من العبارة " ... فلان يهدر اللغة ... " بمعنى " ... فلان يتكلم اللغة ... " و مما يزيد هذه الأطروحة منطقاً هو كثرة مثل هذا

المجازان صح التعبير في العامية الجزائرية. قارن : كابوس، كسرة (عربية) و كابوس ، كسرة (عامية).
و هكذا جرت العادة في حديثنا العامي لما نريد الإشارة إلى فعل الكلام بأن نستخدم التعبير " هدر - يهدر " . و منه اشتقت كلمة " هدره " . أقول هذا بكل حذر و تحفظ ريثما نطلعنا دراسات أخرى عن ما يخالفه . و بهذا أكون قد حاولت فك اللغز وسبب و كيفية تسمية العامية الجزائرية ب " الهدرة " لأعود إلى صميم موضوعنا الخاص بتصنيفها من حيث هي اللغة أو لهجة .
أن المطلع على أعمال الباحثين اللغويين العرب يلاحظ أنهم قد اتخذوا في تعريفاتهم للهجة عدة مصطلحات مترادفة أذكر منها : " اللهجة العامية اللهجة الدارجة، اللهجة الشائعة ، اللغة العامية، الدارجة، اللغة المحكية ، لغة الشعب، العربية العامية ، الكلام العامي، الكلام الدارج، الشكل اللغوي الدارج"
(7) نستنتج من هذه العناوين أنها تربط دون حد بين مفهوم اللغة

و مفهوم اللهجة . الأمر الذي يجعلنا و نحن نتطرق لهذا الموضوع نحدد طبيعة كل واحدة منهما .

اللغة بمفهومها العام هي عبارة عن تركيبة صوتية كلامية تجمع أركانها قواعد نحوية صرفية متفق عليها من طرف مجموعة من الأفراد تربطهم علاقات اجتماعية ثقافية معينة . و هذا لتكون أداة تعبير و وسيلة تخاطب و اتصال فيما بينهم . أما اللهجة فهي "صفة أو صفات صوتية تتصف بها لغة منطقة من المناطق" (8) . و بتعبير آخر هي تحريف نوعي جهوي في نطق و لفظ اللغة من طرف فئة معينة داخل المجموعة . و اللهجة لا تختلف عن اللغة المستوحة منها إلا في بعض مظاهرها السطحية . لكن إذا مس هذا الاختلاف البنية و التركيب و القواعد بصفة عامة تغدو اللهجة لغة مستقلة قائمة بنفسها و هذا ما يجب أخذه بعين الاعتبار عند تعريف طبيعة " الهذرة الجزائرية " .

" الهذرة الجزائرية " كما تدعى في الأوساط الشعبية ظاهرة لغوية فريدة من نوعها تختلف عن اللهجات المعروفة في العالم العربي بخصائص تكمن في طبيعة محتواها و كيفية بنيتها و تركيب كلامها و مغزى تعابيرها و بيانات أسلوبها و بلاغتها ، فهي عبارة عن مزيج من كلام الأمم التي استوطنت شمال أفريقية يغلب فيها أصل العربي ، و هي ليست وليدة الساعة ، بل تضرب حذورها إلى عهد نزول الفينيقيين بهذا الشمال ، وضعها صراع و تعايش لغة هؤلاء و اللغة الأمازيغية المحلية ، و لقد ذكرت في الكتب التاريخية باسم " اللغة البربرية – البونيقية " (9) و كانت تعتبر اللغة الثالثة لذلك العهد ، حيث نجدها قد عايشت اللغة الفينيقية الرسمية و اللغة الأمازيغية الأم ، و بقدم

العرب إلى هذه الديار غلب عليها كلامهم فتطورت و تغيرت حتى وصلت إلى ما هي عليه حاليا، فكان ابن خلدون قد أشار إليها ب "لغة الحضر و الأمصار" معللا قوله بما يلي : " أعلم أن عرف التخاطب في الأمصار و بين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ، و لا بلغة أهل الجبل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر و عن لغة هذا الجبل العربي الذي لعهدنا و هي عن لغة مضر أبعد ... فأما إنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر ، يشهد له ما فيها من التغاير الذي بعد عن صناعة أهل النحو لحننا" و ما طرا عليها عبر الزمن من كلام مولد و دخيل .

و نحن في صدد تصنيف " الهدرة الجزائرية ، إذا تأملنا كلام ابن خلدون نجده قد قسم اللغة في شمال إفريقية عامة ، و في الجزائر خاصة إلى ثلاثة : (1) لغة مضر و هي اللغة العربية الفصحى ، (2) لغة الجبل و هي اللغة العربية المعاصرة لعهده و لعهدنا كذلك ، (3) لغة الحضر و الأمصار و هي لغة عامية كما تسمى حاليا، و إذا حق لي أن أدلي برئي في هذا الموضوع أقول أن اللهجة العربية في الجزائر في الوقت الحاضر هي لغة الجبل أو اللغة العربية المعاصرة ، و ذلك لأن إذا ما قارناها باللغة العربية الفصحى " نجدها في بيان مقاصد و الوفاء بالدلالة عن سنن اللسان المضري، و لم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول، فاعتضي، منها بالتقدير و التأخير ، و بقرائن تدل على خصوصيات المقاصد " (10) أما اللغة العامية " الهدرة الجزائرية " فهي لغة مستقلة بنفسها تتطور حسب نواامس خاصة لا يمكن لأحد التحكم فيها ، و هي نفسها تحوي لهجات " اللهجة الوهرانية "، " اللهجة العنابية " ... الخ .

و هذا مثال أضربه لعله ينير طريقنا و يزيل شكنا و
يهدي سبيلنا ، لتتصور معا سائح عربي يتقن في القوت نفسه
لهجته العربية و اللغة العربية الفصحى، و ليكون من قطر أو
الأردن أو العراق فيقدم إلى الجزائر فيسمع أحدا يقول لصاحبه
كشك و تبغ و كبريت؛ " أعطيني بكي (بكية) دخان و قابسة
زلاميت (زلاميط) و جرنان ."
لا أظن زائرنا سيفهم شيئا ما عدا كلمات " أعطيني "و"
دخان " بمعنى ما يصعد من عملية الحرق . أما ما تبقى من
المفردات فهو بالنسبة إليه لغز يصعب فكّه، و من هذه الأمثلة
في " هدرتنا " الكثير و الكثير لا مجال هنا لذكرها.
السؤال المتوقع و الذي كثيرا ما يطرح في هذا الصدد
هو : كيف يمكن للعامة و هي تفتقر لقواعد تحكم تركيبها و
تمسك بنيتها أن تكون لغة ؟ جوابنا على هذا السؤال كما يلي : لا
أظن أن المطلع بجدية على طبيعة اللغة العامية الجزائرية يزعم
ذلك ، بل بالعكس لهذه الأخيرة كلغة القواعد ثابتة تظهر جالية
للأعيان في أمثالها الشعبية و شعرها الملحون و غيره و قصتها
الشعبية ... الخ، فقط إلى حد الآن لم تأخذ بعين الاعتبار، و لم
تدرس كما هو الشأن بالنسبة لقواعد سائر اللغات ، و الكلام إذ
كان بالسمع و النقل فهو أيضا بالقياس و العقل، و أخيرا إنني أرى
أنه قد حان الوقت و دقت الساعة لأن نقوم ب " هدرتنا " قيام
الأمم الأخيرة بلغاتنا ، و هذا لا يعني و لن يعني أبدا المساس
بوحدة العربية كما يضمن البعض ، فالوحدة في يومنا هذا ليست
باللغة و الكلام ، إنما بالفعل و الكد و العمل ، و ما وحدة أوربا
إلا دليل قاطع على ذلك.

- (1) المنجد في اللغة و الإعلام ، دار المشرق بيروت 1986
- (2) لاروس الصغير ، باريس 1982
- (3) نفس المرجع الأول
- (4) نفس المرجع الثاني
- (5) ابراهيم أنيس ، من أسرار اللغة . ط.3 القاهرة
- (6) ابن خلدون المقدمة ، دار الكتاب اللبناني 1982 ص.
- 1089.1090
- (7) رياض قاسم ، اتجاهات البحث اللغوي الحديث ، مؤسسة نوفل لبنان 1982 ص. 25،26
- (8) نفس المصدر ص.49
- (9) مولود قايد . الأقليات و الرومان في شمال إفريقيا الجزائر
- (10) ابن خلدون نفس المصدر ص. 1078 ، 1079